

## السيد حسن القاياتى

نشأنا نقرأ قصائد رائعة للأستاذ السيد حسن القاياتى بجريدة الأهرام ومجلة الرسالة، ونُدرك فى نظمه رصانة تدل على إتقان واتقاد، حيث لا يأتى بالمعنى العفوى كما اتفق، ولكنه - كأبى تمام - دائم الغوص على الشوارد الخافية النائية، وكانت مكانته فى مجمع اللغة العربية تُلقى علينا ظلاً من المهابة، فلا نجروء على تفقد ما يقع من الغموض فى شعره، حتى كانت السنة الرابعة بكلية اللغة العربية، وحاضرنا الأستاذ عبد الجواد رمضان عن الأدب المعاصر، فذكر السيد حسن القاياتى قريباً لشوقى وحافظ ومحرم وكبار الفحول من شعراء النهضة، وأكبرنا ذلك بدءاً، فعرض علينا الأستاذ من قلائده ما كنا نجهل، بل ما زاد عجبنا من جهلنا إياه، فالأستاذ فريدٌ فى اتجاهه الشعرى، يُعنى بالدقائق من المعانى، ويتجنب الفضول، وإذا أطال لا ينزل عن مستواه فى بيت واحد! وقد كثر حديث الأستاذ عبد الجواد رمضان عن صاحبه، فقلنا له: وماذا يفيد الحديث المقصور على الطلاب فى حجرة ذات أربعة جدران، فانطلق ليكتب بحثاً أدبياً عنه نشره بمجلة الأزهر، وتلته بحوث خاصة بشعر القاياتى، وأذكر أنى قرأت فيما كتبه الأستاذ بمجلة الأزهر أن الأستاذ حسن القاياتى، كان زميل الأستاذين الكبيرين مصطفى عبد الرازق ومحمود أبو العيون فى عهد الطلب، يتدارسون ويسمرون معاً، ثم حان موعد امتحان (العالمية) وهى الشهادة النهائية حينئذ فتقدم الأستاذان للامتحان، وأنف الأستاذ القاياتى أن يجلس مجلس الممتحن! ولا ندرى كيف وقع هذا؟ ولكنه تاريخ يكتب!

## أول لقاء:

تشوقتُ إلى لقاء الشاعر الكبير، فأخبرتُ الأستاذ عبد الجواد برغبتى، فقال لى حين طلبتُ أن يُمهّد سبيل التعارف: عجباً، ألا تعرف بيت القياتى بالسكرية؟ لا يوجد أديبٌ أو زعيمٌ سياسى إلا عَرَفَ هذا البيت، لقد كان والدُ السيد حسن من زُعماء الثورة العراقيّة، ونُفِيَ إلى الشام مع شقيقى له من علماء الأزهر، وألّف بعض الكتب هناك، ثم قامت ثورة سنة ١٩١٩ فكان منزل القياتى بالسكرية أحدَ براكينها الثائرة، وبِهِ أُعدَّ أكثرُ منشوراتِ الثورة، وكان الأستاذ مصطفى القياتى أكبر خطيب عرفته ثورة ١٩١٩ بشهادة زعيمها الخالد سعد زغلول! وما زال بيت القياتى منذ سنة ١٩١٩ عامراً بالوفود! وإذا انقطع حديثُ السياسة، فإن حديث الشعر والأدب لا ينقطع، لأنَّ السيد حسن القياتى يُصغى إلى كل ما يعرضه الناشئة من طلبة الأزهر ودار العلوم والجامعة من الشعر، ويحاول أن ينقُد ما اعوجَّ، ويهدى من ضلّ! ثم تسألنى بعد ذلك عن بيت القياتى؛ وتطلّب شفيحاً للقاء صاحبه، اذهب سريعاً وتلمذ عليه!

لم يكن الأستاذ عبد الجواد مبالعاً فيما قال، فقد ذهبتُ عقب صلاة المغرب إلى بيت القياتى بحىّ الدرب الأحمر، فوجدتُ المجلس الأدبى، يؤمّه الناشئة والكبار معاً، وفى هذا المجلس عرفتُ صديقى الأستاذ طاهر أبو فاشا، إذ كان لا ينقطع عن لقاء الشاعر الكبير، كما عرفتُ فريقاً من الأدباء لهم مكانهم الواضح فى دنيا الفكر المعاصر، وتقدمتُ للأستاذ فأعلمته بما يفرضُ فيه الأستاذ عبد الجواد من حديث عن شاعريته، ووجدت من بشاشة اللقاء ما شجعنى على تكرار الزيارة، غير أن الذى عجبت له، أن الأستاذ لم يكن ليكتفى مع زائريه بما يُقدم من شراب القهوة شتاءً والليمون صيفاً، بل كان يُقيم مآدبَ الغداء والعشاء على نحوٍ متواصل، وكانَّ الزائر قد أتى إلى منزله الخاص ليأكل ويشرب! وقد رأى الأستاذ طاهر أبو فاشا دهشتى حين أخبرنى أن ماشهدتُ الليلة هو النظام اليومى الممتد، فقال لى: لقد تأخرتَ عن موعدك، جئتُ للسيد حسن، وأنت فى السنة الرابعة، لقد ضاعتُ عليك السنوات الثلاث! وحين رجعتُ إلى الأستاذ عبد الجواد تحدّثتُ معه عن لقاء

الشاعر وكرم مجلسه فقال إن بيت القياتى من أعرق بيوت (الصوفيّة) ولهذه البيوت تقاليد لاتنقطع، وكان أجداد القياتى من كبار القضاة فى عصر المماليك، ولهم ذكر ماثور دونه على مبارك فى الخطط التوفيقية، وفى طليعتهم شمس الدين القياتى قاضى قضاة مصر فى المائة الثامنة، ومنذ المائة الثامنة هذه، والبيتُ عامرٌ بزائريه، يتحدثون فى الفقه والدين والأدب والسياسة ثم يأكلون وينعمون! وأطرق الأستاذ قليلاً ثم قال وفى قنا بيتٌ مماثل، هو بيت الصوفى الكبير «أبو الوفا الشراوى» بيوتٌ حافلةٌ بالعلم والكرم معاً!!

### شغف واهتمام:

شُغفت بتتبع آثار القياتى فيما تفرق من الصحف، وقد حدثنى الأستاذ محمد شوقى أمين، أنه كتب فى جريدة الوادى عدّة مقالات عن شعر القياتى تحت عنوان (ثنائيات القياتى) إشارةً إلى أبيات من الحكمة، أكثر الشاعر من نظمها، بيّتين بيتين، حتى ألقت مجموعةً من المعانى الفكرية ذات المنحى الفلسفى، وكان المشرف على رئاسة تحرير الوادى حينئذ الدكتور طه حسين، فقال لشوقى حين واصلَ المقالات عن هذه الثنائيات، ماذا أبقيت لشوقى وحافظ والبارودى حين جعلت القياتى أكبر شاعرٍ معاصرٍ؟! وقد قرأتُ ما وقّع فى يدي من مقالات شوقى أمين، ثم لفتنى الأستاذ عبد الجواد رمضان إلى قراءة ما كتبه القياتى فى جريدة كوكب الشرق، تحت عنوان (العثرات)، إذا أخذ يتتبع مقالات الأدباء، وقصائد الشعراء تتبعاً ناقداً، ويخصّ كلّ عثرة نقدية بتصويب كاشف، وكان البحثُ عن جريدة كوكب الشرق شاقاً بالنسبة إلىّ، ولكنى اهتديتُ إلى مجلّد يحوى سنةً كاملة من أعدادها، فأسفّتُ أكبر الأسف أن تفرقت هذه البحوث فى صفحات الجريدة المسائية دون أن تُجمع! مع أنها لو طُبعت فى جزءٍ مستقلٍّ لألفت كتاباً حافلاً بالتصويب النقدى الرصين، ولا أدرى لماذا أهملها صاحبها؛ فتركها أبايد. اللّاه

### بين القياتى وشوقى:

من أبيات السيد حسن القياتى الذائعة قوله:

١. زيب تها اهدا

٢. ابعشا ربحه

٣. نحصه هيف رقبسا

إنى لأضحّم من فى مصر قافية لا تجحدونى هذلى أهبها بل العجم! لحنفا

وهو قول يدلّ على اعتزازه بمكانته الشعرية، كما يدلّ على أنه لا يقرّ سبق غيره عنه في مضمار القريض، وهو لإبائه العنيف لم يشأ في حياة شوقى أن يشنّ حرباً عليه، لأنّ أنصار التجديد قد أصلوا شوقيا بما فيه الكفاية، ومنزعُ القاياتى أقربُ إلى منزع شوقى فى الاتجاه الفنّى، فما يُقال عن تقليد شوقى يُقال أيضاً عن تقليد القاياتى! وحين ارتحل شوقى نهضَ من يُبايعُ العقاد بإمارة الشعر، كما نهضَ مَنْ يُشيدون بشوقى الراحل ويعدّونه فرداً لانظير له! ولا أدرى لماذا ترك القاياتى تحفظه من ناحية شوقى، وأثر أن يعلن ما طواه فى أحثائه من شجون أدبية، حين كتبَ فى جريدة كوكب الشرق الصادرة بتاريخ ٢٣ / ١٢ / ١٩٣٤ تحت عنوان (إمارة الشعر)، وهى إحدى العثرات المتوالية بالجريدة (ورقمها ٦٨) فقال القاياتى:

هأنذا، وهذا شوقى، وتلك أشعاره وهذه أشعارى، فإن كنتم ولابد قاضين له علينا، فلا أقل من نظرة موازنة عفيفة برّة تلقونها على قصيدة لى، وقصيدة له، فإذا انكشفت المقايسة بيننا وبينه عن سبقه وتبريزه كان لكم أن تحلّوه سماء وتلبسوه تاج الإمارة يأتلق على مفرقه الواضح.

ثم يعرضُ قوله:

كَمْ نالَ كُرْسَى النِّيَابَةِ جاهلٌ      إن قيسَ بالكُرْسَى قيسَ بأنفس

مقارناً بقول شوقى:

دَارُ النِّيَابَةِ قد صُفّت آرائِهَا      لا تُجلِسُوا فوقها الأحجارَ والحُشْبَا

مؤكدًا أن شوقيا نزع المعنى منه غاصباً إياه! ويقولُ بصدد ذلك «لَمَحَّة جُلَى من الموازنة بين شاعرين عصريين أحدهما أمير الشعراء (شوقى)، والثانى شاعرٌ من عرض الشعراء، لا هو بالنّابه، ولا المعروف، بيد أنك ترى فى بيته على فضيلة السبق فيه مسحةً فنّانةً من الشاعرية الساخرة، فى جدّة من التشبيه، وجزالة من اللفظ إلى مانجد فى بيت شاعرٍكم من الانتحال بل الإغارة المسلّحة».

هذا قليل من كثير قاله القاياتي! وموضع النقد فيما انتحاه، أنه جعل الموازنة بين بيت وبيت فقط! وما هكذا يا سعدُ تورد الإبل! فقد يتفوق القاياتي في بيت وفي أبيات! ولكنّ النظرة العامة إلى شعر الشاعرين في موضوعاتهما المختلفة، وأساليبهما المتباينة هي التي تكونُ موضعَ الترجيح، ولا أدري كيف نسى القاياتي ذلك أو تناساه!

### رثاء منتحل:

كان من عادة القاياتي أن يودّع الراحلين، بشائئة من شعره، يكتبها بالنسخ، ويوقع بكلمة (السيد) فحسب، ويضع الشعر بين مستطيلٍ يخطّه بالقلم الرصاصي، ثم يرسلُ القصاصة إلى الجريدة اليومية فيظهر البيان بتوقيع (السيد).

وحين مات الدكتور زكي مبارك ظهر هذا البيان بتوقيع (السيد)

شُعْلٌ من اللهب الذكي شَبِتْ بقلبي من زكى  
جَمَعَ الذكاءَ فرُوَعِيَتْ صِلْمَةَ المسمي بالسمي

وكنّا في منزله بالسكرية، فحدّثنا الشاعر حديثاً عجباً، خلاصته أنه نظم بيتين في رثاء زكي مبارك، وبعثَ بهما إلى الجريدة، ففوجئ بيّتين لم ينظّمهما، وقد نُشرا بتوقيعه، ثم رأى أن يُحقّق الأمر بنفسه، فوجدَ الأصل مكتوباً بخط نسخي يوافق خطّه، وبتوقيع لا يختلف عن توقيعه، وقد وُضِعَ البيتان في مستطيلٍ كعهده فيما يُرسل، وهو للآن لا يعرف هذا الذي حاكاه شعراً وخطاً وتوقيعاً فأجادَ المحاكاة! قلتُ: ولمَ لمَ تُعلن الأمر؟ قال: أردتُ، ولكن رئيس التحرير شاء أن يتريّث، ليعلم من المرسل؟ لأنه إذا وجد الصمت، فسيعلن عن نفسه! أما إذا وجد الاحتجاج فسيؤثر السكوت.

ثم ضحك القاياتي، وقال: هناك قصةٌ مشابهة وقعت للشيخ حمزة فتح الله، فقد كان يركب في تفتيش المدارس بالصعيد سفينةً تابعة لشركة (كوك) وكان عمالها يضايقونه حين الوضوء والصلاة، فعزم على شكواهم، ولم يفعل، ولكنه فوجئ

بقصيدةٍ مَهورةٍ باسمه، تعلن هذه الشكوى، وإذا كان الشاعر يتكلف الغريب غير المأنوس من الألفاظ، فقد جاءت ألفاظ القصيدة على طريقته، وكأنها من حُرِّ نظمها، فكانت مفاجأةً أولى للشاعر، أما المفاجأة الثانية فهي نسخة القصيدة ذاتها، إذ كُتبتُ بخطِّ مماثل لخط الشيخ حمزة فتح الله، إذ كان يكتب بحروف تقرب من الرسم الكوفي، وهو ما اعتاده أصحاب الصحف، حتى ألفوه منه! وقد قال الشيخ حمزة: هذا النظمُ نظمي وما قرضتُه، وهذا الخط خطي وما كتبتُه! ثم اتضح أن الشاعر إسماعيل صبري اشترك مع حفني ناصف في النظم، وقد قلداً الخط تقليداً متقناً، ثم قال القاياتي: إنه كان على صلة قوية بإسماعيل صبري، وقد زاره لأول مرة مع الدكتور محمد صبري السوربوني وسجّل هذه الزيارة في قصيدة نشرها أخيراً بالثقافة، ومطلعها:

أما وقد زُرتك فلأعجبٍ برتبة أذنتُ من الكوكب  
نوه بي قصديك في منتدي زاحمتُ فيه البدر بالمنكب  
صفيّ دارٍ خلّتني عنده أزورُ عرش الملك في موكب  
كم رحّب البشرُ بناً جهده والدار لولا البشرُ لم ترحب

### تأبين حار:

حين انتقل القاياتي إلى رحمة الله، لم تُوفه الصحف حقّه من التوديع، فسكت عنه مريدوه، وطالما غمرهم بتشجيعه وبره، ولكن تأبين مجمع اللغة العربية للراحل الكريم في حفل مشهود، قد أحيا ذكر الشاعر خير إحياء، إذ ألقى الدكتور منصور فهيم كلمة رنانة كان لها تأثيرها النفاذ بين الحاضرين جميعاً، وكنتُ أحد من سعدوا لسماعتها، وحرصتُ على الاحتفاظ بها بعد نشرها في مجلة المجمع، لأنّ الدكتور منصور قد كان أديباً رائع التعبير، صادق العاطفة، قوى الإخلاص، وقد رسم صورةً رائعة للشاعر في سموّه وتعاليه ونزاهته، وذكر في مطلع التأبين، أنه طلب آثار الفقيد من أهله، فجيء له بمكذّسات من المقالات والقصائد نُشرت

على مدى خمسين عاماً ولم تُطبع فى أجزاء، ثم قال: على أن الكيفية التى جمَع بها الفقيهُدُ مخلفاته الأدبية قد تدل على طبيعة زاهد، لا يتلهّف على شهرة فى دُنيا الأدب، ولا يتعجّل منزلةً من الناشرين، فيؤثّر الريث والدعة على الركض الحثيث.

ثم كان الدكتور منصور فهمى شاعراً قوى التأثير حين رسم موكبَ الوداع للراحل، إذ كان بعضَ شهوده المشيعين فرأى النعش الكريم يخرجُ فى الضخوة العالية من منزلٍ أثرىّ تتجمع فى أروقه ووجهاته أنماطٌ من الفن الشرقى الصميم، وقد تدافَع المريدون إلى حملة متزاحمين، وقد أخذوا يتثدّون ويتناقلون حرصاً على أن يصبهم أكبرُ قسط من بركة هذا الرفات، حتّى بلغوا جامع المؤيد ليضعوا الجثمان فى سيارة تحركتُ عجلاتها بين نشيج الباكين، وصلوات الداعين، ومضى الركب المتواضع ليصمم شطر القايات، حيثُ كان الناس فى استقبال الجثمان حُشوداً زاخرة يتزودون منه بآخر النظرات، ويضعون رفاتَه فى رحاب آبائه المباركين، رضوان الله عليهم وعليه أجمعين.

هذا بعضُ ما يحضرنى عن القاياتى، ولصديقى الأستاذ الشاعر محمد مصطفى البسيونى ذكرياتٌ عاطرة عنه فلعله يتحدث عنها، وسيجدُ من يستمع.

\*\*\*

## الدكتور عبد الوهاب عزام

تحدثت عن الدكتور عبد الوهاب عزام في أكثر من كتاب، وقد قلت فيما قلت عنه: إنه كان من دعاة الإسلامية الواعية أينما حلّ، وقد درس لغات المسلمين من فارسية وأوردية وتركية، لا ليجلس أستاذاً بمعهد اللغات الشرقية، بل ليدرّس آمال المسلمين وآلامهم في كل بقعة، وليفصح عنهما بما يملك من بيان وليقدّم أعلام المسلمين ونتائجهم الحافل إلى اللّغة العربية، كما قدم محمد إقبال، ومحمد عاكف، وعبد الحق حامد، والجامي، والعطار، مترجماً وشارحاً ودارساً، وقد كان رئيساً لرابطة الأخوة الإسلامية بالقاهرة، وكانت تجمع ممثلين مستنيرين لشتى الدول الإسلامية، كما كان عميداً لكلية الآداب بمصر، فسيراً لها بالمملكة العربية السعودية، والباكستان، ولقى الله وهو مدير لجامعة الرياض بالسعودية.

هذا بعض ما قلته عن الرجل تعريفاً به، وأريد الآن في حديث الذكريات أن أسرد بعض ما يتعلق به من مواقف رأيتها رأى العيان، وكان لها أثرها القوي لدىّ. أوّل ما رأيت الدكتور عزام رأيتُه في دار الحكمة بالقاهرة، حيث كان يُلقى درساً من دروس التفسير القرآني في حلّقه علمية نظمها الحاج يعقوب عبد الوهاب أسبوعياً، وكان موضع التفسير هو الآيات الكريمة في أول سورة الروم المبتدئة بقوله تعالى: ﴿الْم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة الروم الآية ١: ٥٠.

حيث ذهب الدكتور في تفسيره مذهباً جديداً لا عهد لنا به، إذ ذكر أن ما قاله جمهرة المفسرين من أن فرح المسلمين بنصر الله سيكون حين يغلب الروم الفُرسَ بعيداً غير محتمل، لأن المسلمين لا يعتبرون نصر الروم على الفُرس مصدر فرح وبهجة، وهم عدوٌ لهم، تحرشوا بهم، وتعالوا عليهم هازئين، ثم إن الآية تقول: «وعد الله لا يخلف الله وعده» والوعد لمن يعود إليه الخير منه، ولم يكن لا انتصار الروم أذى خير يعود على المسلمين.

ثم قال الأستاذ الدكتور ما ملخصه، لقد رجّحت أن هزيمة الروم التي اهتم بها العرب حين نزلت الآيات الكريمة وقعت حوالى سنة ٦١٥، والنصر الذى سيفرح به المؤمنون ويعدونه نصراً من الله هو انتصارهم فى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة، أى سنة ٦٢٤، وبين سنة ٦١٥، وسنة ٦٢٤ بضع سنين، فكأن معنى الآية الواضح هو هذا: حين يتحقق نصر الروم سيتحقق لكم، أيها المسلمون انتصار من عند الله تفرحون به، وقد وعدكم الله بهذا، ولا يخلف الله وعده!

هذا لباب ما قاله الدكتور فى تفسير الآية، وقد استمع إليه الخاصة من العلماء، فأوأ فيه ما يدعو إلى التأمل، ومالت الكثرة منهم إلى تأييده، وكان من الغريب أن تمضى عشرون عاماً على إذاعته، ونشره بمجلة الرسالة، ثم يقوم عالم فيدعيه لنفسه فى حديث إذاعي، وقد دفعتنى الواجب العلمى إلى كتابة مقال أرد به الرأى إلى صاحبه، مستنداً إلى مجلة الرسالة، لأن الحديث الشفوى فى محاضرة عامة قد يتعذر إثباته والافتناع به عند من يتتخل أقوال سواه، وكم رأينا فى هذه الأيام من أقوال تُغتصب بعد رحيل أصحابها، ولكن الحق يعلو فينكشف الزيف.

### اللغة الفارسية:

حين تقرّر انضمام طلبة كلية اللغة العربية إلى معهد التربية، أُضيف بعض المواد الجديدة إلى المقررات بالكلية، ومن بينها اللغة العبرية، ولكن الطلاب أبوا دراسة العبرية، وأحبوا دراسة اللغة الفارسية لأنها لغة إسلامية، وأبناء الأزهر جديرون بتعلمها، فاتجه نفرٌ منهم إلى شيخ الكلية الأستاذ عبد الجليل عيسى، يعرضون

رأيهم في ضرورة تدريس الفارسية، فقال: إن اللائحة خيرت الكلية بين اللغتين. ولكن كلية الآداب ليس لديها من تنيبه لتدريس الفارسية لدينا، فبعثت بمن يدرس العبرية هذا العام، ولو استطعتم مقابلة الدكتور العميد، وإقناعه بانتداب أستاذ للغة الفارسية، فهذا غير مخالف لللائحة، وكان كلام الشيخ باعث توجيه فورى للطلاب، فذهبتنا إلى كلية الآداب، وكنا خمسة من الزملاء، ونحن نتهيب لقاء الدكتور العميد، ولكننا فوجئنا بأحسن ما يكون من الاستقبال، إذ ترك الدكتور عبد الوهاب عزام مكتبه، وجلس معنا كواحد منا، ثم استمع إلى ما قلناه في ابتسام مشجع، وقال بعد أن فهم المراد، أصارحكم بشئ في نفسى، هو أن اللغة العبرية الآن أصبحت ضرورة قصوى لنا، لأنها لغة عدو يحتل أرضنا، ويشن على العرب غاراته الظالمة، ولا بد أن نتعلم لغته، ولنستطيع أن نفهم إذاعته، ونقرأ صحفه، لأن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، ولعله توفيق من الله أن أرسلنا أستاذاً للغة العبرية إلى الأزهر، فإذا استمعتم نصيحتى فقد أبديتها، ونظر بعضنا إلى بعض نظرات المقتنع المؤيد.

ولم يشأ الدكتور عزام أن ينهى المجلس، ولكنه استطرد فذكر أنه كان أستاذاً بكلية اللغة العربية في العام الأول لإنشائها، وأن الملك فؤاد رحمه الله قد زار الكلية، واستمع إلى درسه بها حين مرّ بالسنوات المختلفة مع فضيلة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية حينئذ، وأنه آنس لدى طلاب الكلية ذكاءً وقدرة على الاستيعاب، وبراعة في النقاش، ثم قال إنه في العام الماضى كتّب مقالاً عن البطل الأندلسى المنصور بن أبى عامر، ودعا الشعراء إلى تخليد بطولته بقصائد تُثير الحمية وتُلهب الهمة، فلم يستجب غير طالب بكلية اللغة العربية نسي اسمه، إذ أرسل إليه قصيدة عن المنصور تُعتبر من عيون الشعر الإسلامى، وهو يحتفظُ بها فى أوراقه، وسيعملُ على نشرها! ثم ودعنا فى اعتزاز.

ذهبتنا إلى الكلية مقتنعين بقول العميد، وكان من هدفى أن أبحث عن الطالب الذى أرسل القصيدة إلى الدكتور العميد، وأنا أعرف الزملاء من شعراء الكلية

معرفة مودة ومسامرة، فأخذتُ أسألهم واحداً واحداً حتى علمت أن صاحب القصيدة هو زميلي الأستاذ يوسف زاهر، فأحبيتُ أن يطلعني عليها، فاستجاب مرحباً، وأسمعتني شعراً صادق الإحساس والتصوير، فنقلتُ القصيدة مُعترِفاً، وأذكرُ من أبياتها قولَ الأستاذ يوسف زاهر في حالِ الأندلس قبل سيطرة المنصور:

ذابتُ مهابتُهُم من عينٍ واترهم	كما يذوبُ بكأس الشاربِ الحَبُّ
لولاَ محمدُ وافاها على عجلٍ	والريُّحُ عاتيةٌ والموج مضطربُ
لغيرِ الريُّحِ مجراها ولا رتطمتُ	ألواحها بصخور شادها العطبُ
لم يئنَّه عن حمى أعدائه مرضُ	ولم يثبطه عن نيلِ العلاءِ نصبُ
قد يخمدُ الجسمُ من كدٍّ ومن تعب	وجمرة الروح في الأحشاء تلتهبُ

### لقاء عابر:

ومضى أكثر من عام، وصادف أن مرضتُ عيني بالرمد قبيل الامتحان بالسنة النهائية، فتألمتُ كثيراً، ورقفتُ عن خواطري بقصيدة تصوّر أشجانَ طالب سيتقدّم للامتحان بعد شهر، وهو لا يستطيع أن يقرأ، وبدا لي أن أنشرها بمجلة الثقافة التي تُشجعني تفضلاً، فذهبتُ إلى إدارتها بشارع الكرداسي، ومن حظّي الحسن أن وجدت الدكتور عزّام يجلسُ في حجرة رئيس التحرير وحده، وقال إنه حضر بمقالٍ للنشر، وسألني عن مقصدي، فذكرته أولاً بلقائنا في مكتبه، واحتفائه بنا ثم طلبَ أن أنشد القصيدة التي جئتُ لنشرها، فقرأتها متهيّبا، لأنني أعرفُ أن العميد ناقدٌ دارس، وكان مما قلت:

أعدّ دروسى وهى فوقى كصخرة	أناختُ على صدرى فنوّتُ بها حملاً
أصول تلاقت بالفروع فأشكلتُ	وأقسم لا فرعاً فهمت ولا أصلاً
كأنى منها دون ذروة شاهقٍ	أحاول أن أرقى فلا أجد السبلا
هب اللّغة الفصحى ستلقى زمامها	إلى بما كابدتُ فى فهمها قبلا

فمن لى بالعبرى وهو طلاسّم كما رقتُ عرافةً تضرب الرملا  
عجبتُ لهم جاءوا بها أعجميةً وقالوا بيانٌ يُمتع الروح والعقلا  
إذا صحَّ ما قالوا فإنّ انتسابها لصهيون يُلقبها إلى الوهدة السفلى!

وما كادَ الدكتور يسمعُ حتى ضحك، وقال: أنا السببُ فى إقناعكم بتعلّم اللّغة العبرية! قلتُ لو لم تكن العبرية لكانت الفارسية! ثمّ أخذتُ منى القصيدة، وكتبَ عليها متفضلاً، أرجو أن تُنشر سريعاً، وفوجئتُ بنشرها فى العدد القادم بدون إبطاء..

### مسجد حلوان:

أنشأ الدكتور عبد الوهاب عزام مسجده بحلوان، ليجمع الصّفوة من مفكرى المسلمين، إذ يتيسر لقاءهم بعد صلاة الجمعة حين يكونُ صاحب المسجد بمصر، وكنتُ أسعد كثيراً بلقاء الأستاذ بعد الصلاة، حين يجتمع حولَه أصدقاؤه وتلاميذهُ فيفيض فى أحاديث العالم الإسلامى المعاصر، لأنّ زيارته المتابعة لشتى ربوع الإسلام الحنيف جعلته ذا إمام مباشر بما تموجُ به الأحداث، وقد كتّب رحلاته فى جزأين كبيرين يتضمّنان خلاصةً مشاهدةً بأسلوب رصين لا ينفُصه البريق الأدبى فى بعض خطراته. ومن مجلسه العامر، عرفتُ تاريخ شخصيتين نابهتين، إحداهما شخصيةُ الداعية الإسلامى الكبير عبد الرشيد إبراهيم الذى كان نظيرَ جمال الدين الأفغانى فى تجواله ببلاد الإسلام النائية ليرفع كلمة الله، إذ نشأ الداعية فى حكم روسيا القيصرية ذات الجبروت العاسف بالمسلمين، فقاومَ هذا الجبروت ما استطاع، ثم رحل إلى تركيا والهند والصين، لنشر كلمة الإسلام، واستقرّ أخيراً باليابان فاعتنق الإسلام على يده عدّة ملايين، واستطاع أن يبنى مسجداً بطوكيو يكونُ مركز إشعاع لمن يعتنقون الإسلام، ثم دأب على أن يؤم الناس فى جماعة الفجر، فإذا فرغَ من الصلاة جمع أطفال المسلمين ليقرئهم كتاب الله، ويعلمهم فرائض الإسلام، ويراجع الكراسات الصغيرة بخطّ التلاميذ! ثم

قال الدكتور عزام، أليس من العجيب أن يكتب عبد الرشيد إبراهيم كتاباً قيماً عن رحلاته في بلاد الإسلام، فيترجم إلى اللغات الأوربية، ولا يترجم إلى العربية، وهو أجدراً باهتمامنا من رحلة ابن بطوطة التي اشتهرت في الآفاق، لأنه يكشف حاضر المسلمين، ويرسم الطريق للمستقبل؟!

أما الشخصية الثانية فهي شخصية الشيخ خليل الخالدي الذي جاب جميع العواصم الإسلامية شرقاً وغرباً، لبحث عن التراث المخطوط في دور الكتب، ومنازل العلماء، حتى أصبح أكبر عالم في المخطوطات، فإذا حدثنا عن كتاب ما، ذكر أماكن أجزائه المبعثرة في مكاتب الشرق والغرب، فيقول الجزء الأول مثلاً بمكتبة الآستانة، والثاني بالمغرب، والثالث بالقاهرة، وكل ذلك من محفوظه لا من كتاب بين يديه، وعن طريقه اهتدى الناشرون إلى جمع أجزاء متناثرة من كتب قيمة، وله خبرة بمخطوط العلماء في شتى العصور، إذ عرف رسمهم الكتابي معرفة الخبير الفاحص، وأذكر أن الأستاذ قد كتب عنه أكثر من مرة في المجلات العلمية، ولكنه لم يترك الحديث عنه في كثير من مجالسه، وهكذا كنا نظفر بالرائق المستطاب من حديث الدكتور في مسجد حلوان.

أمنية لم تتحقق:

حين عين الدكتور عزام مديراً لجامعة الرياض ليقوم على إنشائها بخبرته العلمية، واهتمامه الإسلامي، رشح الأستاذ الزيات للقيام بعدة محاضرات بقسم اللغة العربية بكلية الآداب هناك، وقد تباطأ الأستاذ الزيات معتلاً بتقدم السن، وتأخر الصحة، فأشار عليه الدكتور عزام أن يختار من تلاميذه من يقوم بمهمة المدرس المساعد، فينوب عنه في إلقاء بعض المحاضرات بعد توجيهه إلى المراجع، وطريقة البحث، وشاء الزيات أن أكون أنا المدرس المساعد، فكتب إليّ، وكنت مدرساً بثانوية أبو تيج، وفرحت كثيراً، وقابلت الدكتور عزام فغمزني بعطفه المشكور، ولكن الرياح قد جاءت بما لاتشتهى السفن، حيث اعترض الأمن بوزارة الداخلية على اسمي، إذ كنت محرراً بمجلة الإخوان المسلمين من قبل! ولم

يستطع الدكتور عزام أن يُدلل الصعوبة القائمة، فقابلنى ليقول إن الغد مخبوءٌ لا يُنظر، وقد يُهينى الله من الفرص الممتازة ما لا يخطرُ على بال، ومن يدرى لعلك تصبحُ أستاذًا فى جامعتك! قالها، ولا دليلَ يؤكد، ولا بارقةَ تشير، وكان السماء كانت تستمع، فجاء الغد بما يحققُ أمل الأستاذ! وأذكرُ أن الأستاذ الزيات أُصيب بنوبةٍ من نوبات الروماتيزم، فاعتذرَ آسفًا، ولم تسعدِ الرياضُ بزيارته.

ثم انتقلَ الدكتور عزام إلى رحمة الله، وقد بقى حديثه عاطرًا يتردّدُ نافحًا بالعبير، أذكرُ أن الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب كان أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وكنتُ أزاله بكلية اللّغة العربية هناك، فكنا نتحدّث كثيرًا عن أعلام الفكر فى مصر، وجاءَ حديثُ الدكتور عبد الوهاب عزام، فذكرَ لى الدكتور يحيى أنّه سعد بالتلمذة له، ثم بزمالته، وكانَ رئيسًا لقسم اللغات الشرقية الذى ينتمى إليه الدكتور الخشاب، فتقدّمَ اثنان من الزملاء أحدهما الدكتور يحيى لنيل درجة أستاذ مساعد ليرشح القسمُ أحدهما، وفوجئى الدكتور الخشاب بأنّ الدكتور عزام قد اختارَ زميله، فأضمر فى نفسه عتابًا صامتًا، ولكنّ الدكتور عزام قال له: سأتناولُ معكَ الغداء فى منزلك يا يحيى، ثم ذهبًا معًا إلى البيت، فصلّى عزام الظهر، وتناولَ الغداء مع الأسرة، لأنّ الدكتورة سهير القلماوى تلميذةُ الدكتور عزام وزوجةُ الدكتور يحيى، فليست غريبة عن أستاذها، وبعد أن فرغا من الطعام قال عزام: زميلك يا يحيى أقدمُ منك فى التعيين بشهر واحد، وأنتما مُتساويان فيما عدا الأقدمية التى رَجَحَ بها، وستكونُ أنت المرشح الأول فى وقت قريب، فاطمن، هذا ما سمعته من الدكتور يحيى فجعلته خاتمة هذه الذكريات!

\*\*\*

## الأستاذ محب الدين الخطيب

رأينا فى هذا القرن الحافل بأحداثه أناساً يحملون على كواهلهم أعباء العالم الإسلامى، فما تجدد مأساة من مآسى الاستعمار فى شتى ربوع هذا العالم الممتد إلا كانوا فى طليعة المناصرين، ومقدمة المساندين، ومن هؤلاء شكيب أرسلان، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، ومحب الدين الخطيب الذى أعنيه بذكريات اليوم، فعلى مدى ستين عاماً تحفل بالأحداث الكبار كان محب الدين يجاهد بقلمه ولسانه وماله فى إذكاء الروح الإسلامية المتوهجة بالحماس، وقد كتب فى المؤيد ما أراد، ثم انتقل إلى الأهرام فلم يجد المجال الفسيح، فأنشأ مجلتى الزهراء والفتح، ليفسح المجال أمامه فيكتب ما يريد بدون سيطرة من رئيس تحرير يتحفظ ويجامل ويصطنع الكياسة فى مهب الأعاصير، ثم انتقل فى أخريات جهاده إلى رئاسة التحرير بمجلة الأزهر، وفى مهمته هذه سعدت بمعرفته، ونهلت من معينه.

### عبد الرحمن الغافقى:

كنت قرأت ماكتبه الأستاذ جورجى زيدان فى روايته المبدعة (شارل وعبد الرحمن) مصوراً فترة من فترات الجهاد الإسلامى بالفردوس المفقود، فأعجبت إعجاباً رائعاً بسيرة البطل العربى الفذ عبد الرحمن الغافقى، وأخذت أبحث عن دراسة تاريخية خاصة بكفاحه البطولى، فلم أجد غير شذور متناثرة فى كتب التاريخ، ولكن إعجابى بالبطل الشهيد دفعنى إلى جمع هذه الشذور، وصنعت منها بحثاً متواضعاً، تقدمت به إلى مجلة الأزهر، وقابلت رئيس التحرير على غير معرفة، فلما قرأ عنوان البحث أشرق وجهه بالسرور، وصاح بى: لقد أحسنت كل

الإحسان في اختيار هذه الشخصية المظلومة، فدعني أقرأ ما كتبت أولاً، ثم مضى يقرأ المقال ودلائل القبول تكسو وجهه، حتى إذا فرغ منه، قال لي: سأشره فوراً بدون إبطاء، وأرجو أن تسير في هذا الميدان الموجه، فتختار أمثال هذه الشخصيات الرائعة التي تنكب عن دراستها من يجمعون المتعارف عن المشهورين، ولا يسأمون أن يكرروا ما يعرفه تلاميذ المدارس، وكأنهم يتقدمون بنادر عزيز! إنني أعاني كثيراً من أمثال هؤلاء، وقد طربت لاختيارك عبد الرحمن الغافقي، وأنا أرشح لك أمثال عماد الدين زنكي، وقتبة بن مسلم، وعقبة بن نافع، والسلطان محمود الغزنوي، والنعمان بن مقرن، لتكتب عن كل بطل حلقة أو حلقتين فأسارع بنشرها بمجلة الأزهر. قلت: إنني أعتز باقتراحك وسأفعل إن شاء الله.

ولكن الرجل الكبير أعقب ذلك بقوله: لا تغفل المراجع الأولى، وأهمها تاريخ الطبري، لأنني أجد بعض الكاتبين يكتفي بالكتب المعاصرة، وهي جدول لا يغني عن النهر، وعليك أن تعلم أن مثل الطبري في تاريخه كان ينقل كل ما يعلم في الرواية الواحدة، ليضع أمام القارئ كل ما تناهى إليه، وهو بلاشك يعرف أن بعض ما كتب لم يبلغ مبلغ الصواب، ولكنه ذكره مع ما يعارضه من الروايات، ليضع أمام الباحث رسالة صعبة، هي رسالة التخطئة والتصويب، والترجيح بميزان العقل الدقيق، حيث يختار من الروايات المتعارضة ما تشهد الدلائل بصحته، يقول الأستاذ محب الدين، وقد ابتلينا في هذا العصر بمن يحتضن الروايات الرديئة وحدها، وينسج منها ثوباً مشوهاً لأبطال التاريخ، فكن من هؤلاء على حذر، ثم ودعت الرجل، وقد بعث في نشاطاً، وأوقد بين جوانحي همة تتطلع إلى البحث البصير.

### الزيارة الثانية:

كنت حديث عهد بالتخرج من كلية اللغة العربية، وكنا نستعير من مكتبة الأزهر العامة بعض (الملازم) ونردّها عقب انتهاء العام الدراسي، ولأمر ما نسيت أن أرد ملازم النحو من كتاب الأشمونى بحاشية الصبان، فجاءني خطاب يستعجل الردّ،

وبحثت عن (الملازم) المطلوبة فلم أجدها، فرأيت أن أزور مدير المكتبة فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغي، لأخذ رأيه، واستقبلني الرجل قائلاً: إنه يعرف اسمي، إذ يُطالع ما أكتب، ولذلك سيجعل هذه الملازم من المستهلك، وكنت قد قرأتُ له مقالا بجريدة الأهرام يرثى فيه الأستاذ محمد فريد وجدى بعد رحيله إلى جوار ربّه، فأثّنتُ على المقال، وهو حقيقة يستوجب الثناء، ففاجأني الأستاذ بقوله: إنه كتب المقال لمجلة الأزهر، ولكن الأستاذ محب الدين تشدّد في رفضه، وأبى أن ينشره، فلم يجد بدا من إرساله إلى الأهرام، فسارعت بنشره، على غير ما كان يظن!

دهشت كثيراً لما كان من رفض الأستاذ محب! وكان مقره على خطوات من مكتبة الأزهر، فسارعتُ إلى لقائه واستقبلني الرجل مرحّباً، وقد ظن أنني أحمل مقالا جديداً، ولكنني قلت له: إنني علمت أنك رفضت نشر مقال في رثاء الأستاذ وجدى، وهو رئيس تحرير مجلة الأزهر لمدة عشرين عاماً، وجهاده الشاق في الحقل الديني يجعله في مقدمة زعماء الإسلام في العصر الحاضر، فلماذا؟

تغيّر وجه الأستاذ فجأة، وقال: أنت لاتعرف فريد وجدى، إنه ناصر الكمالين في تركيا، كما أنه في بعض كتاباته الأولى قال إن الإسراء كان بالروح ولم يكن بالجسم، فكيف أترك صفحات المجلة للحديث عن مثله، لقد رثيته بالعدد الماضي في عدة سطور وهذا يكفي!

ولا أدري كيف انفعلتُ كثيراً لما لم أكن أتوقع سماعه، فعلاصوتي، وأنا أقول: إن الأستاذ وجدى قد ناصر الكمالين في مبدأ الأمر، لأنه كان يجهل حقيقة ما يبيّتون، وكذلك كان أحمد شوقي، فقد مدح مصطفى كمال بعدة قصائد، ثم رأى من أفعاله ما دعاه إلى الهجوم عليه، وقال بصدد ذلك:

مالي أطوقه الملام وطالما طوقته المأثور من أمداحي  
الحق أولى من وليك حرمة وأحقّ منك بنصرة وكفاح

فهل يُلام شوقى أو يلام وجدى؟ أما الإسراء بالروح فقول ذهب إليه بعض السلف، فإذا قال به الأستاذ وجدى فهو تابعٌ لامتبوع، على أنك قلتَ إن هذا رأيه فى كتاباته الأولى، ومعنى ذلك أنه لم يعد رأيه أخيراً، ثم سكتُ قليلاً، فلم أستمع رداً ماً من الأستاذ محبّ، فاستدركتُ أقول: لقد ألّفتَ يا أستاذ كتاباً عن الشاعر الهندى (طاغور) ملأته بتقريظه، أفلا يكونُ وجدى مثل طاغور، وله جهاده المشرفّ؟

ثم إنك تجلس اليوم مكانه بالأمس! واستأذنتُ منصرفاً بدون أن أسمع جواباً.

### حذر وارتقاب:

رجعتُ إلى المنصورة، وأنا نادم على لهجتى الحادة، التى واجهتُ بها أستاذاً كبيراً له حق الرفق والتؤدة، وقلت فى نفسى: كان من الممكن أن تفصح عن وجهة نظرك بغير هذا الأسلوب الذى أثار الأستاذ فبدت دلائل الغضب فى وجهه بدون أن ينطق، ثم أخذتُ أرسل له مقالاتى بالبريد، متوقّفاً أن يتلكأ فى نشرها، ولكنه (شهد الله) كان يُسارع فى النشر بدون إبطاء، فأدركتُ أنّ روحه عالية، وأن غضبه كان وقتياً فحسب، وهكذا النفوس الكبيرة لا تحفل بما يكون من خلاف مُنزّه عن الغرض، إنما يسىء المنقود كل الإساءة أن يعلم أن ناقدته مغرض غير نزيه، فإذا انتفى ذلك عنه فى رأيه فإنه سيعفو عمّا يصحب النقد من شطط متسرع، وهكذا فعل محب الدين.

ثم جاءنى بالبريد خطاب منه، يعلن فيه أن مجلة الأزهر ستصدر عدداً خاصاً بمهاجمة فكرة الدكتور طه حسين التى دعا فيها إلى إلغاء التعليم الابتدائى والثانوى بالأزهر، وسماها (الخطوة الثانية) باعتبارها تالية للخطوة الأولى، وهى إلغاء المحاكم الشرعية، والحق أن الأزهر جميعه قد ثار لهذا الاقتراح، وشاء رئيس تحرير مجلة الأزهر أن يصدر عدداً قويا خاصاً بمهاجمة هذه الفكرة، فكتب لأناس من الفضلاء يرجو إسهامهم فى التحرير على وجه سريع، ولا أدرى لماذا تقاعستُ عن إجابة هذا المقترح حينئذ، مع أنى أعارض فكرة الدكتور طه حسين، والحقيقة أن الإنسان فى بعض أحيانه يعانى من الجفاف الأدبى مما لايسمح له بمواصلة الكتابة،

فقد تأتي عليه مدة تطول أو تقصر بدون أن يكتب سطرًا واحدًا، وقد يؤلف كتابًا جيدًا في شهر واحد، وكان من الواجب أن أعتذر للرجل شاكرًا تكمه باختياري، ولكنني قدرت أني سأكتب في آخر لحظة، ومرّ الوقت بدون جدوى، ثم ظهر العدد حافلا بمقالات أكثرها موضوعي، وقليلها استهلاكي، فسعيت إلى لقاء الأستاذ معتذرًا باشتغال الخاطر بأمر خاصة حالت دون الاستجابة، فوجدته سهلًا وديعًا يسارع إلى قبول الاعتذار في تسامح، وقد تشقق الحديث حول اقتراح طه حسين، فقال الرجل إن طه حسين أخذ كثيرًا من نشاطه الأدبي، إذ كانت آراؤه في أكثرها تصدم مشاعره منذ نشر كتابه عن الشعر الجاهلي، ودعا إلى أن تكون مصر مصرية فحسب، ونادى بالتعليم المختلط في جميع المراحل، ثم ابتسم ابتسامة تنم عن ذكرى سعيدة خطرت له أتبعها بقوله: لقد كتب طه حسين بحثًا ينكر فيه شخصية مجنون ليلي ويعدّه شخصية أسطورية لا وجود لها، لأن الروايات الأدبية تقول عنه أشياء متضاربة، فهو مرة نجدي، وأخرى تهامي، ومرة تزوج بليلى، وأخرى حرم لقاءها، ومرة جنّ وأخرى عقل، وهذه المتناقضات في رأى طه حسين تدل على أنه غير موجود فعلا، وأن الرواة قد اخترعوا أخباره فجاءت متناقضة، ثم جاء الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فكتب مقالًا رائعًا يزن فيه طه حسين بميزانه الذى وزن به مجنون ليلي، فقال: سيأتى بعد عدة قرون من يزعم أن «طه حسين» غير موجود، لأنه فى بعض الروايات أزهرى يلبس العمامة، وفى بعضها مطربش تخرج من الجامعة، وهو فى بعض الروايات عالم دين يحفظ القرآن، وفى بعضها متفرنس تخرج من جامعة باريس، وهو فى آثاره السياسية مضطرب الاتجاه، مرة يهاجم حزبًا، ثم فى مرة أخرى يكون داعية له، وكل هذه المتناقضات تدل على أنه لم يوجد، وإنما اخترع الرواة قصّة وجوده، يقول الأستاذ محب الدين ماكدتُ أرى هذا المقال الممتاز حتى ساعدتُ على نشره فى أوسع نطاق، فنشرته بمجلة الزهراء، وبمجلة الفتح، وبمجموعة الحديقة التى أصدرت منها ثلاثة عشر جزءًا، ثم لم يشفنى هذا فنشرته فى صفحتين كبيرتين، ووزعتهما بالمجان مع بائعى الجرائد، لأنّ فكرة المازني تهدم كل آراء طه حسين إذ قامت على تصيد المتناقضات.

## أغراض الاستشراق:

ظهر كتاب يتحدث عن التاريخ الإسلامى فى عهد النبوة لمدرّس جامعى حشاه حشواً بأفكار المستشرقين ممن لم يسلّموا من المنحى التبشيرى، وفيه ما يؤلم الحقيقة، إذ خاض المؤلف بالباطل فى الفتوح الإسلامية، والروح العربية، وقد تعرض الكتاب لنقد موضوعى عصف به، فحبّب لى أن أكتب مقالاً عن أغراض المستشرقين، أشرت فيه إلى نماذج من سقطاتهم المنكرة، وأتبعتها بما قيل فى ردّ هذه المفتريات، وظهر المقال بجملة الأزهر مشفوعاً بتعليق مستفيض كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب، مؤكداً أن المستشرقين عيون الغرب فى الشرق، وقد قام الاستشراق لتعريف الدول الغربية بالنواحى التى لا يستطيع الإمام بها رجال السياسة فى وزارات الاستعمار، وهم يتفاوتون فى اتجاههم التبشيرى، فمنهم القسيس المتعصب، كالأب لامنس اليسوعى، ومنهم من يحارب الإسلام بعواطفه اليهودية، كالمتنصر مرجليوث، وليسوا جميعاً فى هذا المستوى، وأفاض الأستاذ الخطيب فى تعليقه إفاضة تدل على اهتمامه بالمقال، فرأيت من الواجب أن أشكره، وتوجهت لزيارته بإدارة مجلّة الأزهر، فنهض للقائى حين وقعت عينه علىّ، وقال: إنّ مقالى عن المستشرقين يجب أن يُذاع على أوسع نطاق، لأن مجلّة الأزهر محدودة الانتشار، وأنه أرسل صوراً منه إلى بعض أصدقائه من رؤساء التحرير فى مكة، ودمشق، والرباط، وبغداد، ليجعلوه من مختاراتهم التى ينشرونها فى صحفهم! فتأثرت كثيراً بما قال، وشكرته معترفاً بصدق يقينه، وودعته مسروراً مغتبطاً.

## إزالة شبهة:

انتقل الأستاذ من رئاسة مجلّة الأزهر، وتفرغ لعمله الحر بالمطبعة السلفية، فمضت مدة كبيرة لم أسعد بلقائه، ثم صادف أن ذهبت إلى جزيرة الروضة لزيارة صديق يسكن بجوار منزل الأستاذ، فدفعنى حينئذ إلى لقاءه، ووجدته بجلبابه الأبيض يقف بين العمال فى المطبعة، سائلاً عن بروفات كتاب يقوم على نشره، وما إن رآنى، حتى صاح: يا أستاذ رجب، تعال أسمعك أعجب الأنباء، زارنى اليوم طالب بكلّة أصول الدين وأخبرنى أن أستاذه بالمدرّج شتمنى ورمانى بالجهل!

لو كنتُ تعرضتُ للاهانة في كليةٍ إحدائيةٍ من الكليات التي أحارب أدياءها، ماتمكني الغضب، ولكن بعد هذا الجهاد المرير أسبُ في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر! قلتُ: تأكّد أن الذي نقل لك هذا الهراء غير أمين، فكل الأزهرين يعرفون مكاتنتك الرائدة في دنيا العلم والصحافة والأدب، وسأبحث الموضوع فوراً وأتصل بك.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى كلية أصول الدين، وقابلت الأستاذ الدكتور عبد الغنى الراجحي، وأخبرته بما حدثني به الأستاذ محب الدين، فقال متعجباً: لا يُعقل هذا، ثم صحبني إلى حجرة الأساتذة وصاح بصوته الجمهوري: مَنْ منكم تعرّض للأستاذ محب الدين في محاضراته، فرأيت شيخاً مهيباً يتسم، وقال: هو أنا، فسارعت أقول له: إن الرجل غاضب لشمك إياه، فقلّب كفيه دهشاً، وقال: محب الدين بمنزلة أستاذي فكيف أشتمه؟ لقد خالفته فقط، إذ كنتُ أدرس حياة أبي الحسن الأشعري، وقررتُ أنه عدل عن مذهب الاعتزال إلى مذهب يجمع بين طريقتي السلف والخلف وإليه ينتسب الأشاعرة جميعاً، فقال أحد الطلاب: إن الأستاذ محب الدين قد قرّر في بعض بحوثه أنه رجع إلى عقيدة السلف وحدها، فقلت: إن الأستاذ محب باحث فاضل، ولكنه غير متخصص في كُتب العقيدة، وطالبتُ الطالب أن يعرض عليّ ما قال الأستاذ محب، فوعدني ولم يفعل للآن.

اتصلتُ تليفونيا بالرجل من الكلية، وأخبرته بما سمعت، فشكرني، ولكنه قال: إنه يتمسك بما قاله الطالب من رجوع الأشعري إلى مذهب السلف، إذ إن آخر كتاب ألفه وهو كتاب (الإبانة) يدل على سلفيته الخالصة، والآراء بالخواتيم، فرجعتُ إلى الشيخ الجليل وأخبرته بردّ الأستاذ، فقال لا بدّ من بحثٍ جديد لكتاب الإبانة، مع المقارنة بينه وبين كتاب (اللمع) الذي يُعتبر أساس المذهب الأشعري.

وكانت زيارة المطبعة هي آخر مرة أرى فيها الداعية الغيور محب الدين، إذ انتقل إلى جوار ربه، تاركاً آثاره الناطقة بفضله، وقد تنوعتُ ميادينها لتلتقي في مركزٍ واحد، هو خدمة الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى اتحاد بلاد الإسلام.

\*\*\*

## الشيخ محمد الغزالي

الشيخ محمد الغزالي من أكبر دعاة الإسلام في هذا العصر، إن لم يكن أكبرهم جميعاً! فإنه يملك مع روعة البرهان وقوة الإيمان، وصلابة العقيدة أسلوباً حاراً يتوهج حمية، ويلتهب غيرة، أسلوباً يملك مشاعر المستمع حين يكون الغزالي خطيباً، ويأسر عواطفه حين يكون الغزالي كاتباً، وهو من الأستاذ حسن البنا رضى الله عنه بمنزله محمد عبده من جمال الدين الأفغانى، إذ شرح أصول فكرته، وحلّل عناصر دعوته، وأيد مسعاه بالفكر المستنير والرأى الصائب، وقد رزق الله مؤلفاته حظوة بالغة لدى الخاصة والعامة، فكانت مكتبة إسلامية تقف في وجه الطوفان الزاحف من بلاد العداء الصارخ، فتكتسح الباطل وتنصر الحق، وكان من حظى أن أتابع هذه المؤلفات وأن أكتب عنها فى تقدير وإجلال، إذ كنت أستضيء بنورها فى كل اتجاه، وقد نشرت بعض ما كتبت عن مؤلفات الأستاذ فى الجزء الثانى من كتابى (من منطلق إسلامى) ثم عثرت على كتابات أخرى سأحاول نشرها فى مجموعة تالية، ومن بينها ما نشرته بمجلة الرسالة العدد (٩٤٥)، بتاريخ ١٣ / ٨ / ١٩٥١، عن كتابه (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، حيث كان هذا الكتاب صيحة عالية تواجه من يحاربون الشيوعية لحساب الرأسمالية باسم الإسلام، ومن يحاربون الرأسمالية لحساب الشيوعية باسم الإسلام أيضاً، والإسلام - كما يقول الأستاذ - ينظر إلى الرأسمالية والشيوعية معاً نظرة عداء واحتقار، لأن له نظرتة المستقلة التى تعمل على إسعاد البشرية جميعاً فى ظلال صادقة من الإخاء والحرية والمساواة، وأذكر أنى قلت فى الخاتمة: «لقد فهم الأستاذ محمد الغزالي الفقه الإسلامى، وأدرك أصوله ومنازعه إدراكاً يمدّه

الذكاء الثاقب، والنقد البصير، كما ألمَّ بمشكلات عصره، وعلل مجتمعه، وأخذ يستلهم السماء في إصلاح الأرض، ويضمّد بالوحي الإلهي والهدى النبوي جراح الأمة الإسلامية الناغرة».

وأنا أقول الأمة الإسلامية عن قصد، لأن الداعية الكبير يحمل على كاهله هموم المسلمين في كل مكان، شرقًا وغربًا، فما يفجأ الناس حادث في بلد ما من بلاد الإسلام حتى يكون أولّ الداعين إلى إقالة العثرة، ونصرة اللهيف، لأن وطنه هو الإسلام حيث امتد ورفرف، وقد قال أحمد شوقي في تقدير المجاهد الإسلامي الكبير عبد العزيز جاويز أبياتًا رائعة، تصلح أن تُقال في جهاد الأستاذ محمد الغزالي، إذ نعى الناس عليه اهتمامه بمصائب العالم الإسلامي، والناس هنا هم الذين في قلوبهم مرض، تمنّ لايشعرون بأخوة الإسلام، وترابط المسلمين حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، قال أحمد شوقي:

لقد نسى القوم أمسِ القريب فهل لأحاديثه من معيدٍ؟  
يقولون ما (لأبى ناصر) وللمترك ما شأنه والهنود؟  
وقيم تحمّل همّ القريب من المسلمين وهمّ البعيد؟  
فقلت وما ضرّكم أن يقوم من المسلمين إمام رشيد؟  
أتستكثرون لهم واحدًا ولّى القديم نصير الجديد؟  
سعى ليؤلّف بين القلوب فلم يعدْ هدى الكتاب المجيد  
وللقوم حتى وراء القفار دُعاة تغنّى ورُسُلٌ تشيد

### في السعودية:

ولا أستطيع أن ألمّ بذكرياتي جميعها مع الأستاذ الغزالي، ولكنني أكتفى ببعض ما يلقي الضوء على ضروب من جهاده المتعدد الأنحاء، حيثُ المَحْتُ إلى مواقف

من نضاله في مقال صادق كتبه لمناسبة ملزمة، فقد جاء الأستاذ الغزالي أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بعد أن اصطدم بأولى الأمر اصطدامًا مدويًا حين خالف ما يُراد من تشريع يخالف الإسلام في شئون المرأة، فجهرَ برأيه الناقد، ثم رأى أن يستجيب إلى دعوة السعودية فنزلَ أم القرى علمًا بارزًا، ومصباحًا مضيئًا، وقابلَه ذوو الفضل مقابلة تليق بمقامه الجليل، ولكن نفرًا ممن يحسبون كلَّ صيحة عليهم قد تحاشوا لقاء الأستاذ، ظنا منهم أن الاتصال به يعني منابذة أولى الأمر في مصر، وقد علمتُ بذلك وأنا بالرياض أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود، فكتبتُ مقالًا صادقًا أرحبُ فيه بوفود الأستاذ الكبير علينا بالسعودية، متتهزكًا قراءة حديث له بجريدة عكاظ، وبادرتُ بنشر مقالتي بجريدة الرياض الصادرة في ١٣ / ١٢ / ١٣٩٤ هـ تحت عنوان (مرحبًا بالشيخ الغزالي) وفيه أقول:

«لقد سُئل الأستاذ عن عدد مؤلفاته فذكر أنها فوق الثلاثين، وأحبّ أن أوضح أن المسألة ليست مسألة عدد، فإن كلَّ مؤلف للأستاذ يقوم مقام جامعة حيّة تُتمتع العقل، وتلهب الشعور، لأن الكاتب ذو رسالة هادفة، فهو أحد القائمين بقلمه الباتر، ولسانه المؤمن على ثغرٍ من أكبر الثغور خطرًا ومهابة. يذود أراجيف الأعداء، فيبددُ أحقاد الصليبية الغادرة، والصهيونية الماكرة، في عزيمة صارمة لاتعرف المهادنة، وأعداءُ الفكرة الإسلامية في الشرق والغرب يرونه خصمهم الألد، فيحاربونه بكل سلاح، ولكن الله عز وجل يمدّه بالنصر، تأكيدًا لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

نشأ الغزالي مجاهدًا، دائم الحركة، كان في شبابه الأوّل يقف مع الإسلام أمام الانتهازية التي شوّهت معاني الشريعة، فادّعت أن الإسلام يميل إلى الزهد والتقشف، وهؤلاء أجراءٌ من عبيد القلم، يؤيدون افتراءهم بالآية المحرّفة، والحديث المفترى، والتاريخ الكاذب، حتى جاءت مؤلفات الغزالي تشرق بنور

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

الإسلام فتوضح سياسته فى المال والعقار، مؤكّدة حق المسلم فى التمتع بثمار الحياة، وبغى الظالم فى استنزاف الدماء وكسب الحرام، ثم جاء عهدٌ وجدت فيه الشيوعية الكافرة ألسنة تهتف بمبادئها، ويسمّى أصحابها بأسماء المسلمين، وقد سيطروا على منافذ الرأى، ووجدوا فى المنابر العالية، والجرائد الكبرى، والإذاعات العامّة ميداناً لترويج الباطل، ثم رأوا من عَوْن الحاكم المتمكن ما مهد لهم طريق السيطرة والنفوذ، ولكنّ الغزالي حفظه الله يهتف فى الظلام بكفر الشيوعية، ولا يجد فى بلده من يجرؤ على طبع مؤلفاته، فيتجه بها إلى غيرها من البلاد العربيّة، ليواجه الزحف الأحمر، مبيّناً خطره على الإسلام، ومستهدفاً لأشق ضروب المعاملة، من مقاطعة، وإرهاق، والرجل صابر محتسب.

ثمّ تزيد المسألة خطورة، فيتقدم العملاء بسمومهم القاتلة مرجفين بمبادئ الإسلام، ولكنّ الغزالي يصيح بهم فى أضخم المؤتمرات السياسية ليوضح ماضيهم القدر فى الوصولية والانتهاز، ورئيس الدولة يسمع، والتلفزيون والإذاعة تتقلان كلمة الإسلام على لسان الشيخ، فإذا الحقد المسموم يدفع بعض الأغرار إلى التهكّم بالأستاذ فى صورٍ دنيئة ظهرت بها جريدة الأهرام، فهاج لها الشعب المصرى أكبر هياج، وقمعت نفوس الأوغاء، حين عرفوا أن الغزالي يتكلم باسم الأمة الإسلامية، لا باسمه وحده، فأثروا الانزواء.

### بين محمد عبده والغزالي:

سئل الأستاذ الغزالي فى حديث عكاظ عن الإمام محمد عبده ورأيه فى الشرق والغرب، فأجاب بما ألهمه الله من توفيق، ولست أناقش هنا كلام الغزالي عن الأستاذ الإمام، ولكنّى أعلن أن الغزالي قد صار بقوة الله وتأييده خليفةً للإمام فى الميدان، لقد واجه محمد عبده منذ قرابة قرنٍ حقد الأوربيين على الإسلام، فى وقت كانت لهم السيطرة الباغية على أكثر بلاد الحنيفية الزهراء، وقد مكنت لهم قوتهم السياسية من الإرجاف بالإسلام على أوسع نطاق، فادّعوا له المثالب المفتراة، ورأوا أن لأصلاح للمسلمين إلاّ بهجر مبادئه التى تصادم العقل، وتعرقل أسباب الحضارة، وتصد عن العلم والثقافة، فانبرى الأستاذ الإمام لبيدّ هذه

الأراجيف بحجج نارية، تلهب المفتريين، حتى استطاع بمنطقه المفحم أن يوضّح قيادة الإسلام للإنسانية في سبيلها الحضارى المشرق، فكوّن رأياً عاماً إسلامياً يقفُ أمام هذه المفتريات، فإذا هى هواء، ومضى الأستاذ إلى ربه، فزادَ بغى الغرب، وكثرت فى بلاد الإسلام ذبوله، وعملاؤه، فجددوا الهجوم الأفل بسموم غير السموم التى كشفها الأستاذ الإمام، ولكنَّ الله قد هباً الأستاذ الغزالي ليكون فى طليعة من يحملون الراية بعد الأستاذ الإمام، وكانت المعركة حامية الأوار، ولكنها انجلت عن ظهور الحق، ودحر البغاة.

ومضى المقال فى مثل هذه المعانى إلى أن قلت: إنى أباهى بمواقف الغزالي الصّارمة فى وجوه الضلال، إذ هى نماذج تحتذى، وقد اتخذ من المنبر مديعاً لنشر آرائه التى تحاربها جرائد الوصوليين فلا تسمح بإذاعتها، مع أنها تُفرد فى الجريدة الواحدة صفحتين لأخبار من تجعلهم نجوم الفن والرياضة! إنَّ المصريين جميعاً يعرفون مواقف الغزالي الجبّارة على منابر الجامع الأزهر بالقاهرة، وعمرو بن العاص بالفسطاط، وغيرها من منابر عواصم المحافظات، وهى مواقف ردتْ للمنابر الإسلامية اعتبارها، إذ جعلها الأستاذ ذات رسالة إعلامية ساطعة، وما شرّعت الخطب يوم الجمعة فى الإسلام، إلا لتؤدى ما أداه الأستاذ من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأعجب ما أعجبُ له أنّ هذا الشجاع الصائل فى مواقف الخطر، قد تولّى إداراتٍ شتى بوزارة الأوقاف، فكان بها نسيماً رقيقاً يهبّ على أرواح الضعفاء من طالبى العون والإسعاف، وكم جلسَ الساعة تلو الساعة فى مكتبه المحتشد بذوى المطالب، ليعملَ على إنصاف مظلوم، أو تعيين عاطل، أو معونة بائس، وإنَّ عينه لتفيض بالدمع حين يجدُ من مظاهر العوز والحاجة ما لا يملكُ له دفعاً أمام اللوائح والقوانين، هذا الرقيق الباكي قد واجهَ أعنى العواصف جرىء القلب، شجاع اللسان دون أن يتهيب، وما زال موقفه النَّارى مما زعموه حقوق المرأة يتردّد فى كل مكان، إذ وقف أمامَ رغبة طاغية تؤيدّها السلطة بما ملكت من نفوذ، وقد كان

يؤازره في موقفه أستاذنا الجليل محمد أبو زهرة رضى الله عنه، فوجّهها البحث في شئون المرأة وجهته الصحيحة، وإن ورمّت أنوف، وتقلّصت شفاه.

هذا تركيزٌ لما جاء بمقالى في الرياض تحية للقادم العزيز، وقد قرأه الأستاذ، وتفضل بكتابة رسالة إلىّ تحمل شذى أسلوبه المبين.

### كرة أخرى:

كان الرئيس أنور السادات قد هاجم الأستاذ الغزالي بضراوة، ونسب إليه من الجمود وحبّ الظهور والتطرف ما لا يتصل بالأستاذ فى شيء، وكان ذلك على ملا من الأشهاد، حيث أذيع حديث الرئيس فى التليفزيون والإذاعات المصرية، ونشرته الصحف اليومية، وتبرع بعضها بالتعليق المؤلم للأستاذ مجارةً للرئيس، وتزلفاً له، وهى روحٌ منكرة نعرفها لدى من يجعلون الملق الرخيص سلّم الوصول، غير عابئين بتقرز الجمهور، وانكشافهم المخزى أمامه، وفيهم من يسمع ابنه وأخاه وأباه ينكرون وُصوليته ثم لا يخجل، لقد راعنى أن يُطمس الحق فى مصر على هذا النحو المتسع، فكتبتُ مقالاً هادئاً، بدأته بالثناء على الرئيس، ومباركة جهوده السياسية فى إعادة النصر، ونجاح العبور، ثم قلتُ إنه استمع إلى المغرضين الذين يبلّغونه الأباطيل، وهو زعيمٌ مثقف، يعرف دور الغزالي، كما يعلم أن اختلاف الرأى شىء طبيعى، لذلك نرجو أن يعيد النظر فيما قاله، متحريراً تصحيح الحقائق بما تملكه الدولة من أجهزة كلها تأتمر بمشيئته، وذهبتُ مع صديقى الأستاذ الدكتور عبد الستار زموط الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة إلى جريدة الأخبار، على أمل أن تنشر المقال، لأنه يتضمن من الثناء على الرئيس ما يمنعُ شبهة معارضته، وقابلت الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف، وهو صديقٌ عزيز أشرفُ بصداقته، فقرأ المقال، ثم طَلَب أن أتركه معه لينشرَ خلال أسبوع على الأكثر، ومضى الوقت المحدد بدون جدوى، فذهبتُ إلى الأستاذ فهمى، فقال فى هدوء: لقد أدركتُ منذ قرأتُ المقالُ ألاّ سبيلَ إلى نشره، ولكنك كنتَ منفعلًا، فلم أشأ أن أشعل غضبك، وأرجو أن تعلم أن نجل الرئيس نفسه لا يستطيع أن

ينشر مقالاً يعارض فيه اتجاهه، ولعلك تستمع إلى قولى فى هدوء، قلت: وأين المقال؟ قال: سأحتفظ به لى، لىكونَ بعضَ ما أدونَه من ذكريات صحفية فى يوم ما، وقد لمستُ فى حديث الأستاذ روح الإخلاص الودود، فقبلتُ قوله مضطراً، وإن ساءنى أن أحرم من إبداء شهادةٍ حقٍّ، أتقدم بها خالصة لوجه الله.

### هموم داعية:

ألف الأستاذ هذا الكتاب فى الثمانينيات، وأنا أعرفُ أن هذه الهموم ليست طارئةً عليه، بل بدأ يكابدها منذ امتشق القلم فى الأربعينيات، ولكن الذى أثار له هو أن الداعية الكبير لا يحارب فى جبهة واحدة، بل فى جبهتين متباينتين، لأن فريقاً من الذين لا يفهمون الإسلام على وجهه الصحيح يُبيحون لأنفسهم أن يخطئوه بلا هدى ولا كتاب منير، وهم بعد ذوو غيرة إسلامية لا تنكر، وقد بذل الأستاذ فى نقاشهم جهوداً مضية، كان الواجب أن يفرغَ منها كيلا تعوقه عن منازلة من يلحدون فى آيات الله بدون وازع، ولكن الأستاذ قد اصطفى بنارين، وحارب فى معتركين، والله معه! فهو لا يضيع أجر العاملين...

\*\*\*